تسخير البحار للإنسان

(الجزء الأول)

تسخير البحر للركوب

إعداد:

د . رياض عيد روس

مراجعة:

د . قسطاس إبراهيم النعيمي

١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م

مراجعة لغوية

الشيخ/ عبد السلام الشَّدُوفي

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤]

الإهداء:

إلى من يتأملون.. ويتفكرون.. ويتدبرون

إلى أصحاب العقول النيرة ..

والأفئدة المتدبرة ..

التي وحَّدَت ربَّ الأرباب؛

لتنجوا من الضلال والتباب

إلى أولي الألباب:

أهدي هذا البحث المتواضع

الباحث

مُقَدِّمَة[1]:

أينما قلّب الإنسان بصره في هذا الكون الفسيح رأى آية؛ بل آياتٌ تدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، فكل ما في هذا الكون يشهد بالعظمة والقدرة المطلقة للخالق سبحانه، ولذلك أمر الله عز وجل عباده بالنظر والتأمل في هذا الكون الواسع، فقال سبحانه: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

ومن الآيات الدالة على عظمة الله تعالى هذا البحر الواسع، التي مساحته تشكل أكثر من ثلاثة أرباع الأرض التي نعيش على اليابسة منها، ولسعته فإن الله سبحانه وتعالى قد ضرب المثل به في الاتساع والكثرة فقال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[3].

وقد سخر الله تعالى الكون كله لهذا الإنسان، يتصرف فيه بما أتاح الله له من أدوات وحواس، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

وأسبغ عليه الخالق سبحانه كل النعم التي يحتاج إليها؛ عَلَّه أن يشكرها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[5].

١- البحث نُشِرَ بصورته الأولية في عام ١٤٣٤هـ- ٢٠١٢م، وقد أُجريت عليه بعض التغييرات والتعديلات والإضافات في: ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م. [الباحث].

٢- [يونس:١٠١].

٣- [الكهف:١٠٩].

٤- [الجاثية:١٣].

٥- [لقمان:٢٠].

ومن مظاهر هذا التسخير الكوني تسخير البحار العظيمة والمحيطات الواسعة لهذا الإنسان الضعيف، فهو يركب ظهر البحر متنقلاً على سطحه.. مستمتعاً بركوبه.. آكلاً من صيده، ويغوص في أعماقه مستخرجاً كنوزه وثرواته، إلى غير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

وفي هذا البحث سنقف مع نعمة عظيمة سخرها الله تعالى للإنسان وهي نعمة ركوب البحر؛ حيث ذلَّلَ له هذا المخلوق العظيم، ليركب على ظهره بطرق ووسائل متعددة، وهذا نوع من أنواع التسخير المبثوثة في الكون، والتي تحتاج منا إلى الوقوف عندها، والتدبر في معانيها، كي نستقي منها العبر والعظات، والآيات البينات..

وقد قسمت هذا البحث إلى مبحثين:

المبحث الأول: نعمة تسخير البحر للركوب.

المبحث الثاني: وصف القرآن لحالات الإنسان عند ركوب البحر.

وتحت كل مبحث عدد من الآيات والدلائل الإيمانية، واللَّفتات البيانية، والفوائد القرآنية المستفادة من كتب التفسير أو مصادر ومراجع العلوم الكونية.

وإلى المبحث الأول الذي سنتحدث فيه عن نعم الله تعالى في تسخيره البحر لركوب الإنسان.. سائلين الله التوفيق في ذلك..

المبحث الأول:

نعمة تسخير البحر للركوب

منذ القدم ركب الإنسان ظهر هذا البحر، وجعله وسيلة من وسائل التنقل، حيث ركب بعض أنبياء الله عليهم السلام البحرَ، كما أخبرنا القرآن الكريم عن ركوب نبي الله يونس عليه السلام في الفُلك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[1]، ونبي الله موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾[2]، وذلك في رحلة العلم مع الخَضِر [3].

ويقال: إن المصريين القدماء هم أول من ارتادوا البحار والمحيطات، وتلاهم الفينيقيون والإغريق والرومان[4].

وكان دور العرب المسلمين سبَّاقاً في ركوب البحار وبناء السفن من أجل نشر الديانة الإسلامية وأغراض التجارة، وقد ساعدهم في ذلك معرفتهم بعلم الفلك واستخدام البوصلة، ورسم الخرائط، وكانت سفنهم تجوب البحر المتوسط والأحمر، والمحيط الهندي والأطلسي وبحر العرب[5].

إلّا أن هذا الأمر كان على نطاق محدود، وبقدر المراكب البسيطة التي كان يصنعها الإنسان قديماً؛ وذلك لضعف إمكانيات العرب المادية مقارنة بإمكانيات الرومان والفرس.

١- [الصافات:١٣٩، ١٤٠].

٢- [الكهف: ٧١].

٣- وقد صنع الفلك قبل ذلك أبو الأنبياء نوح عليه السلام عندما أمره الله بذلك، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[المؤمنون: ٢٧]، فصنعها بيده عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾[هود: ٣٨]، إلا أنه استخدمها للنجاة من الطوفان الذي أرسله الله عذاباً للكافرين، قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾[هود: ٤٢].

٤- آيات البحار ومعانيها العلمية في القرآن الكريم للباحث أحمد جلال مرسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، على الرابط: http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=774&select_page=10

٥- ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

المعجزة النبوية وأول غزوة بحرية:

الذي يبدو -والله أعلم- أن ركوب البحر لأجل الغزو وخوض المعارك كان من الأمور القليلة والمستغربة في عهد البعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام؛ حيث تَعجَّب النبي صلى الله عليه وسلم مما رأى في منامه أن قوماً سيركبون البحر غزاة في سبيل الله، كما في الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَامٍ[1] بِنْتِ مِلْحَانَ فَتُطْعِمُهُ، وَكَانَتْ أُمُّ حَرَامٍ تَحْتَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَوْماً، فَأَطْعَمَتْهُ، ثُمَّ جَلَسَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ، فَنَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **"نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ، غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ، مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ"**، أَوْ **"مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ"** -يَشُكُّ أَيَّهُمَا-[2] قَالَ: قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَدَعَا لَهَا، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ، فَنَامَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **"نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ، غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ"**، كَمَا قَالَ فِي الْأُولَى، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: **"أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ"**، فَرَكِبَتْ أُمُّ حَرَامٍ بِنْتُ مِلْحَانَ الْبَحْرَ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ، فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ، فَهَلَكَتْ [3].

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: **"ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ"** أي: وسطه، وقيل: ظهره[4]، وأما ضحكه صلى الله عليه وسلم فهذا يشعر بأن ضحكه كان إعجاباً بهم وفرحاً لما رأى لهم من المنزلة الرفيعة، والمراد أنهم يركبون السفن التي تجري على ظهره[5].

١- هي إحدى خالات النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة رضي الله عنها. [انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ٦٢٦/٢].

٢- وفي رواية البخاري قال: «شك إسحاق»، وهو إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضي الله عنه. [البخاري، ١٠٢٧/٣].

٣- أخرجه البخاري، ١٠٢٧/٣، برقم: ٢٦٣٦، ومسلم: ٣/ ١٥١٨، برقم: ١٩١٢، واللفظ له.

٤- انظر فتح الباري- ابن حجر، ٩٤/١.

٥- انظر فتح الباري- ابن حجر، ٧٣/١١-٧٤.

قال الإمام النووي رحمه الله: «قيل هو صفة لهم في الآخرة إذا دخلوا الجنة، والأصح أنه صفة لهم في الدنيا، أي: يركبون مراكب الملوك؛ لسعة حالهم واستقامة أمرهم وكثرة عددهم، قولها: في المرة الثانية "ادع الله أن يجعلني منهم وكان دعا لها في الأولى، قال "أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ"، هذا دليل على أن رؤياه الثانية غير الأولى، وأنه عرض فيها غير الأولين، وفيه معجزات للنبي صلى الله عليه وسلم، منها إخبارُه ببقاء أمته بعده، وأنه تكون لهم شوكة وقوة وعدد، وأنهم يغزون، وأنهم يركبون البحر، وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان[1]، وأنها تكون معهم، وقد وُجِد بحمد الله تعالى كُلُّ ذلك»[2].

وقد كان ركوب البحر قديماً تستخدم فيه السفن الشراعية البسيطة في ارتفاعاتها وقوتها، وصمودها أمام الرياح والأمواج البحرية، وكانت تعتمد أساساً على الشراع الذي يتحرك بحركة الريح، حيث سخر الله تعالى الرياح البحرية لهذا الأمر، ولو سكنت الريح لبقيت السفينة راكدة على سطح البحر لا تتحرك، ولو اشتدت الريح لعصفت بالسفينة وأغرقتها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ* إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ* أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾[3].

قال سيد قطب رحمه الله: «والسفن الجواري في البحر كالجبال آية أخرى من آيات الله، آية حاضرة مشهودة، آية تقوم على آيات كلها من صنع الله دون جدال، هذا البحر مَنْ

١- كانت هذه الغزاة هي أول غزوة إلى الروم سنة ثمان وعشرين حيث ركب معاوية البحر غازياً بالمسلمين في خلافة عثمان إلى قبرس ومعه أم حرام وزوجها عبادة بن الصامت رضي الله عنهم أجمعين. [انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال، ١١/٥].

٢- شرح النووي على مسلم، ٥٨/١٣.

٣- [الشورى:٣٢- ٣٤].

أنشأَه؟ مَنْ مِنَ البشر أو غيرهم يدَّعي هذا الادعاء؟ ومن أودعه خصائصه من كثافة وعمق وسعة حتى يحمل السفن الضخام؟، وهذه السفن من أنشأ مادتها وأودعها خصائصها فجعلها تطفو على وجه الماء؟، وهذه الريح التي تدفع ذلك النوع من السفن التي كانت معلومة وقتها للمخاطبين -(وغير الريح من القوى التي سخرت للإنسان في هذا الزمان من بخار أو ذرة أو ما يشاء الله بعد الآن)-، مَنْ جعلها قوة في هذا الكون تحرك الجواري في البحر كالأعلام؟»[١].

وقد تقدم الإنسان في صناعة السفن شيئاً فشيئاً، حتى صنع السفن الكبيرة لنقل الآلاف من الركاب، وناقلات البترول الضخمة، والحاملات العملاقة، والتي وصل حجمها في عصرنا الحديث إلى ما يزيد عن مائتي ألف طن[٢]، وأصبحت السفن تسير بقوة البترول والغاز، بل بعضها بقوة الطاقة النووية[٣].

سفينةركاب عملاقة

ولعل في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾[٤]، إشارة إلى هذه السفن الضخمة التي يبنيها الإنسان بارتفاعات عالية، وبأحجام واسعة، فمعنى ﴿الْمُنْشَآتُ﴾: «المرفوعات التي رفع بعض خشبها على بعض وركب حتى ارتفعت وطالت حتى صارت في البحر كالأعلام وهي الجبال، والعَلَم: الجبل الطويل»[٥].

قال الباحث أحمد جلال مرسي: «ولفظ ﴿الْمُنْشَآتُ﴾ يدل على وجود تصميم هندسي مُعَيَّن، ثم يأتي لفظ ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: كالجبال؛ ليؤكد على الضخامة والارتفاع

١- في ظلال القرآن، ٦/٣٢٦.

٢- انظر: الماء بين العلم والإيمان- الدكتور هاني عبد القادر عمارة، دار زهران، ط:١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، صـ٧٣.

٣- انظر: النقل البحري- موقع دار العلوم على الرابط: -http://www.daralolom.com/2013/11/blog post_2063.html?m=0

٤- [الرحمن:٢٤].

٥- فتح القدير، ٥/١٩٠.

وكبر الحجم، وهو ما نجده حقاً الآن في الناقلات والسفن وحاملات الطائرات، والتي تجاوزت حمولتها ربع مليون طن، ليدلنا على هتك القرآن[1] لأسرار الكون، والكشف الحقيقي والواضح للمستقبل، في حين أن القرآن قد نزل من ألف وأربعمائة سنة»[2].

الدلالة على قدرته ورحمته:

جعل الله عز وجل ركوبَ البحر آية دالة على قدرته وعظمته ورحمته بهذا الإنسان، حيث سخر له هذا البحر، وذكر جري الفُلكِ فيه ضمن آيات عديدة أمرنا أن نتفكر فيها ونتدبر معانيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ أي: في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ونقل هذا إلى هؤلاء»[4].

وقد امتن الله عز وجل على عباده بهذه النعمة العظيمة؛ ليشكروه عليها فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: الله أيها القوم الذي لا تنبغي الألوهة إلا له الذي أنعم عليكم هذه النعم التي بينها لكم في هذه الآيات وهو أنه: ﴿سخر لكم

١- لو استخدم لفظة (كشف) لكان أفضل من لفظة (هتك)؛ كونها تستخدم في سياقات أخرى مثل: هتك العرض، وهتك الستر وما شابهه، فالهَتْكُ: خَرْقُ السِّتْرِ عَمَّا وَرَاءَهُ، وَالْاسْمُ الهَتِكة، والهَتِيكةُ: الْفَضِيحَةُ، يُقَالُ: هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَ الْفَاجِرِ. [انظر: لسان العرب- ابن منظور، ١٠/٥٠٢].

٢- آيات البحار ومعانيها العلمية في القرآن الكريم، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، على الرابط: http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=774&select_page=10

٣- [البقرة:١٦٤].

٤- تفسير ابن كثير، ١/٢٧٤.

٥- [الجاثية:١٢].

البحر لتجري﴾ السفن **﴿فيه بأمره﴾** لمعايشكم و تصرفكم في البلاد لطلب فضله فيها ولتشكروا ربكم على تسخيره ذلك لكم فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه»[1].

فالله عز وجل هو الذي جعل للبحر القدرة على حمل هذه السفن ذات الأحجام المختلفة جرياً بمصالح العباد، والتي يستخدمها الإنسان في المتاجر والمكاسب، والحصول على المنافع المجلوبة من قطر إلى آخر، والسفر من بلد إلى بلد، وهذا من تكريم الله تعالى للإنسان، كما قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**[2].

فكما أن الإنسان بحاجة إلى النقل البري عن طريق السيارات والحافلات والقطارات، فهو كذلك بحاجة إلى النقل البحري، عن طريق القوارب والسفن التي تنقل البضائع، والناقلات الضخمة للبترول والمواد الخام، وعابرات القارات التي تحمل السيارات والطائرات، والأساطيل البحرية، وغير ذلك من وسائل النقل البحرية المختلفة.

اقترانُ ذكرِ النِّعمتين:

لقد امتنَّ الله علينا في كتابه الكريم بذكر نعمة ركوب الأنعام مقرونة بنعمة ركوب البحر، قال تعالى: **﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ* وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾**[3]، وقال سبحانه: **﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾**[4].

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير آية سورة المؤمنون: «قوله تعالى: **﴿وعليها﴾** أي: وعلى الأنعام في البر **﴿وعلى الفلك﴾** في البحر **﴿تحملون﴾** وإنما يحمل في البر على الإبل فيجوز أن ترجع الكناية إلى بعض الأنعام»[5].

١- تفسير الطبري، ٢٥٥/١١.

٢- [الإسراء:٧٠].

٣- [المؤمنون:٢١-٢٢].

٤- [غافر:٨٠].

٥- تفسير القرطبي، ١٠٩/١٢.

وقال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير آية سورة غافر: «وقوله: ﴿وعليها﴾ يعني: وعلى هذه الإبل وما جانسها من الأنعام المركوبة ﴿وعلى الفلك﴾ يعني: وعلى السفن ﴿تحملون﴾ يقول تحملكم على هذه في البر وعلى هذه في البحر»[1].

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾[2].

وهذا الترابط في ذكر هاتين النعمتين، من ركوب البر والبحر، تتميماً للنعمة وتكميلاً للمنة على العباد[3].

وقفة تأمل:

عرفنا كيف امتن الله على عباده في تسخيره البحر للركوب، وكيف تكلم المفسرون على هذه النعمة العظيمة، وما يجب على العباد من شكرها، وهذا في زمن السفينة الشراعية البسيطة، ومهما كانت ضخامة السفن قديماً فهي مصحوبة بالكثير من المشاق، ومقرونة بالمتاعب والمصاعب، ومهددة بالعديد من المخاطر والتي قد توصلها أحياناً للغرق، إلا أنها تظل نعمة عظيمة لا يستغني عنها العباد، فلزم عليهم شكرها وتسخيرها فيما لا يُغْضِب مجريها ومرسيها.

أما اليوم فقد تطورت السفن وظهرت العديد من المراكب البحرية المختلفة بأحجامها وأنواعها، والمزودة بأحدث التقنيات، والمصممة بأرقى الأشكال الهندسية، فالجلوس على الكراسي المغطاة بالإسفنج، والنوم: على الأسرة ذات الفراش الوثير، والأكل: في المطاعم التي توفر جميع أصناف الأطعمة.

وأما مسار السفينة فإنه يمشي وفق تعليمات مسبقة، وإحداثيات دقيقة تتلقاها غرفة القيادة مباشرة عبر الأقمار الصناعية، ووسائل الاتصال اللاسلكية تنقل للركاب كل أخبار العالم لحظة بلحظة، كل ذلك وراكب السفينة في وسط البحر لا يشعر بشيء من التعب، ويسافر وهو يمارس حياته ومعيشته وكأنه وسط مدينة عملاقة تتنقل على سطح البحر من

١- تفسير الطبري، ١١/٨٠.

٢- [يونس:٢٢].

٣- انظر فتح القدير، ٣/٦٨٧.

قارة إلى أخرى .. بل إنَّ بعض السفن صممت فيها كل وسائل الترفيه والتسلية كالملاهي والملاعب الرياضية والمسابح والحدائق وغيرها..

أفلا تستحق منا هذه النعم إلى شكر المنعم المتفضل!.

ومما يُؤسَفُ له ما نراه اليوم من استخدام هذه السفن فيما يُغضبُ الخالق سبحانه، ومبارزته بالمعصية، ونشر المنكرات حول العالم محمولاً على ظهر هذه السفن، وخاصة السفن السياحية العملاقة، وقد أغرق الله بعضاً منها ولكن لا يعتبرون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

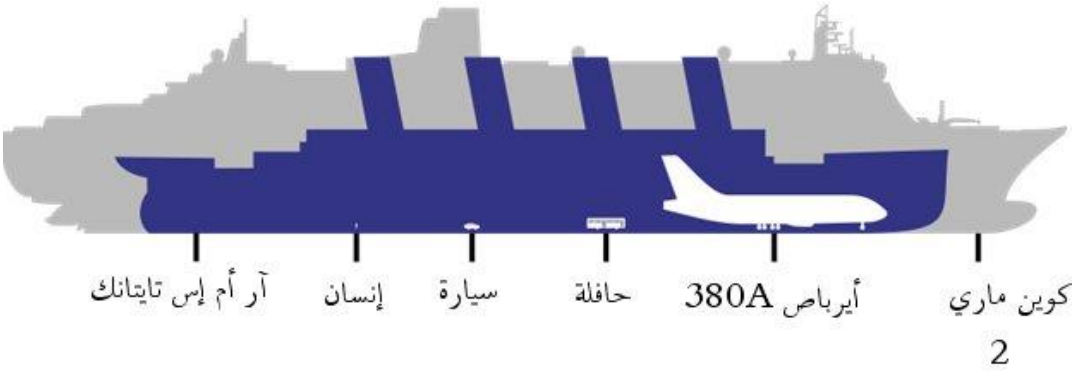

أحجام بعض السفن العملاقة مقارنة بوسائل النقل الأخرى (سفينة كوين ماري وسفينة التايتنك)
ويظهر في الأسفل حجم الإنسان أمام سفينة التايتنك التي صنعت في عام ١٩١٢م وقد كانت أكبر سفينة ركاب في ذلك الوقت

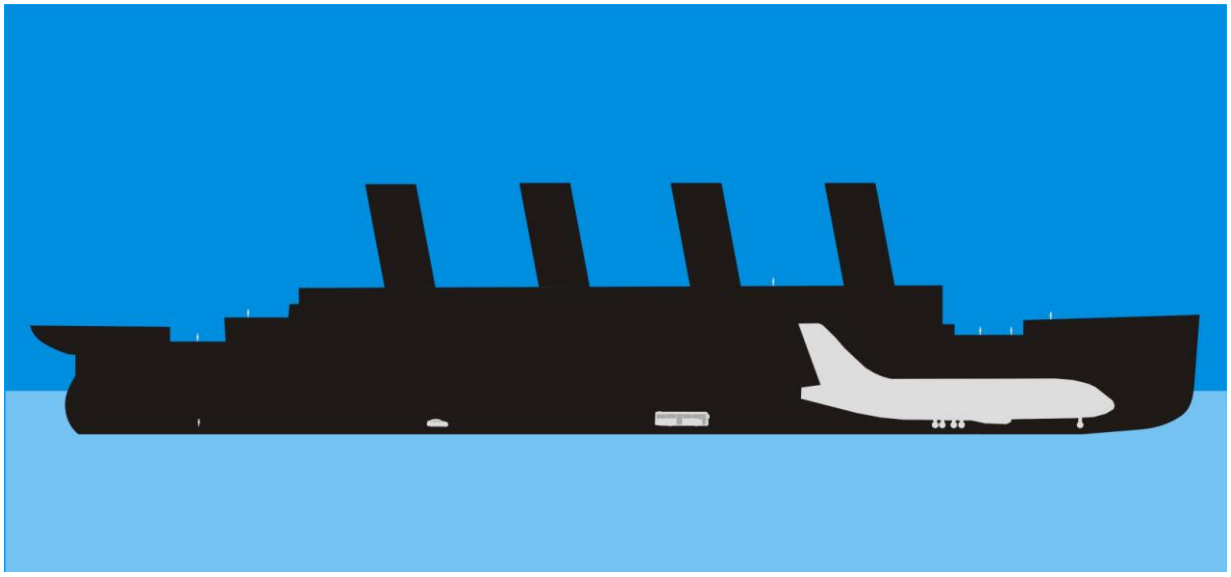

في الأعلى صورة لسفينة التايتنك التي تميزت بالضخامة والفخامة وعدم القابلية للغرق حسب زعمهم، وانطلقت في أول رحلة لها في عام ١٩١٢م وعليها أكثر من ٣٠٠٠ راكب، من بينهم كبار الأثرياء والمشاهير، لكنها غرقت في أول رحلة لها لتكون الرحلة الأولى والأخيرة، وهلك في مياه المحيط الباردة أكثر من ١٥٠٠ من ركابها؛ لعدم توفر العدد الكافي من قوارب النجاة فقد زعموا أنها السفينة التي لا يمكن أن تغرق وكانت أكبر مأساة عرفها تأريخ الرحلات البحرية، فمع الخسائر البشرية غرقت كل الكنوز والأموال المحملة فيها لتستقر في قاع المحيط، واكتشف مكان حطامها بعد ٨٠ سنة من غرقها.

خصائص النقل البحري:

يعد النقل البحري عصب الحياة التجارية والاقتصادية، لما يتضمنه من خصائص ومميزات يمتاز بها عن وسائل النقل الأخرى، ومن هذه الخصائص:

١ – زيادة الحمولة للسفينة الواحدة حيث تصل في بعض السفن إلى مئات الآلاف من الأطنان في المناطق ذات الغاطس المائي الذي يزيد على (١٠) أمتار.

٢ – انخفاض تكاليف النقل البحري مقارنةً بوسائل النقل الأخرى[١].

٣ – أن السفينة أقل تكلفة في بنائها وصيانتها مقارنة بقطار له نفس الحمولة.

٤ – أنه لا يحتاج للإنشاءات إلا في بداية ونهاية الطرق الملاحية كالموانئ والأرصفة البحرية.

٥ – أن هذه الطرق الملاحية لا تحتاج إلى صيانة مكلفة أو إصلاحات كالنقل البري أو النهري.

٦ – أن أقل قوة محركة كافية لنقل حمولة هائلة لا تقارن بمثيلاتها في طرق النقل الأخرى[٢].

٧ – وجود خطوط نقل بحري رئيسة في العالم.

٨ – السرعة؛ حيث زادت سرعة السفن نتيجة التقنيات المستخدمة في بناء السفن إلى (٥٠) ميلاً بحرياً[٣].

٩ – قيام شركات دولية متخصصة في بناء السفن، وفي الشحن البحري، وجميع خدمات صناعة السفن وإصلاحها، من بناء أحواض للصيانة أو مخازن للتخزين، والتأمين البحري.

١٠ –التخصص؛ إذ أصبح النقل بالسفن يقوم على نقل مادة معينة مثل: ناقلات النفط، ناقلات الموز بين أمريكا الوسطى والولايات المتحدة، وناقلات عصير العنب بين الجزائر وفرنسا، فضلاً عن السفن المخصصة لنقل الركاب[٤].

---

١ – الموسوعة الحرة.

٢ – آيات البحار ومعانيها العلمية في القرآن الكريم، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، على الرابط:
http://www.55a.net/firas/arabic/?page=show_det&id=774&select_page=10

٣ – انظر: خصائص وأهمية النقل البحري– السيد عبد العليم، موقع جريدة الوطن العمانية، على الرابط:
http://alwatan.com/details/93520

٤ – الموسوعة الحرة.

السفينة (MAERSK LINE) من أكبر ناقلات الحاويات في العالم

MSC

صور لبعض السفن السياحية من الداخل

سفينة «لوغوس هوب» هي مشروع مكتبة على الماء تجول بين موانئ العالم بمكتبتها العائمة التي تحوي آلاف العناوين التي تتجاوز سبعة آلاف عنوان، وتعرض في مكتبة السفينة، كما تقوم ببيع الكتب بالاتفاق مع دور نشر عالمية بحيث تقدم هذه الكتب بسعرها الأصلي، وقد زارت السفينة بعض الدول العربية

جانب من معرض الكتب داخل السفينة

المبحث الثاني:

وصف القرآن لحالات الإنسان عند ركوب البحر

وصف القرآن الكريم الحالات التي تمر بالإنسان عند ركوبه البحر في عدة آيات في مواضع متعددة، شملت أربع حالات رئيسة نذكرها فيما يلي:

الحالة الأولى: حالة الإحباط:

من الحالات التي تمر على راكب البحر حالة الإحباط واليأس، وقد وصف الله عز وجل هذه الحالة بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ* إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

إن حالة الإحباط التي تظهر على نفسية راكب السفينة مستوحاة من السياق، ويستشفها من له معرفة بركوب البحر، ولذلك قال بعدها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ فإسكان الريح التي يترتب عليها ركود السفينة وتوقفها؛ هي ابتلاء وامتحان يقابلها الصبر، وجريانها نعمة يقابلها الشكر، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام الماوردي رحمه الله بقوله: «صبَّار على البلوى شكور على النعماء»[2]، قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: إن يشأ الله الذي قد أجرى هذه السفن في البحر أن لا تجري فيه، أسكن الريح التي تجري بها فيه، فثبتن في موضع واحد، ووقفن على ظهر الماء لا تجري، فلا تتقدم ولا تتأخر»[3].

ففي هذه الحالة تتوقف الرياح التي تعتبر السبب الرئيس في تحريك السفن الشراعية، فعند ذلك لا تظهر الأمواج على سطح البحر، فتكون حالة البحر (السكون التام) بسبب سكون الريح ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ وتمر السفينة بحالة (الركود) ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ وإذا توقفت السفينة عن الحركة أُصِيبَ راكبوها بالإحباط واليأس، وذلك لعدم تحقق المراد من الركوب.

١- [الشورى:٣٢، ٣٣].

٢- تفسير الماوردي- النكت والعيون، ٣٤٧/٤.

٣- تفسير الطبري، ٥٤١/٢١.

قال سيد قطب رحمه الله: «وإنها لتركد أحياناً فتهمد هذه الجواري وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة! ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾..في إجرائهن وفي ركودهن على السواء آيات لكل صبار شكور، والصبر والشكر كثيراً ما يقترنان في القرآن، الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء؛ وهما قوام النفس المؤمنة في الضراء والسراء، ﴿أو يوبقهن بما كسبوا﴾.. فيحطمهن أو يغرقهن بما كسب الناس من ذنب ومعصية ومخالفة عن الإيمان الذي تدين به الخلائق كلها، فيما عدا بعض بني الإنسان! ﴿ويعفُ عن كثير﴾، فلا يؤاخذ الناسَ بكل ما يصدر منهم من آثام، بل يسمح ويعفو ويتجاوز منها عن كثير»[1].

فهذه هي الحالة الأولى التي قد يواجهها راكب البحر، وهي توقف الرياح التي تؤدي إلى توقف السفن في البحر، وهم في هذه الحالة منتظرون هبوب الريح لتحريك السفينة، وهذا ما سنعرفه في الحالة الثانية من موضوعنا.

١- في ظلال القرآن، ٦/٣٢٦.

شبهة والرد عليها:

يطرح بعضهم شبهةً –بقصد أو بغير قصد– حول قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ...﴾ بأن هذا الخطاب خاص بمن عاشوا في زمن السفينة الشراعية؛ إذ أصبحت السفن والبواخر في عصرنا تسير بمحركات الديزل أو الطاقة النووية، ولم يَعُد لسكون الريح أثر في إيقافها.

ويمكن الرد على هذه الشبهة من عدة وجوه:

أولاً: أن القرآن الكريم كتاب الله تعالى لكل زمان ومكان من وقت البعثة النبوية الشريفة إلى قيام الساعة؛ فلا غرابة أن تكون بعض آياته موجهة لأهل الماضي وبعضها موجهة لنا، وبعضها موجهة لأهل المستقبل.

ثانياً: أنه لا بد من قراءة سياق الآيات كاملاً ليُعلم المقصود؛ فالله تعالى ذكر العقوبة بإسكان الريح ثم العقوبة بالإغراق، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ* إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ* أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ* وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[1]، فقوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ تدخل فيه السفن الشراعية والسفن الحديثة بجميع أنواعها، فالسفن التي لا تنطبق عليها أنها تظل راكدة بسكون الريح فإنها وبلا ريب ينطبق عليها قوله سبحانه ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾، فإن لم يكن الهلاك بإسكان الريح، فيكون بالريح الشديدة العاتية التي تعصف بها، فلا تثبت أمامها أي قوة فتغرق ولا منقذ لها، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم كما قال سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾[2].

قال الفخر الرازي رحمه الله: «والمعنى أنه تعالى إن شاء ابتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فتركد الجواري على متن البحر وتقف، وإما أن يرسل الرياح عاصفة فيها فيهلكن بسبب الإغراق»[3].

١- [الشورى: ٣٢-٣٦].

٢- انظر منتديات كلمة سواء الدعوية، على الرابط:

http://www.kalemasawaa.com/vb/showthread.php?t=16478

٣- تفسير الرازي، ٢٧/١٥٠.

ثالثاً: أنه ما زال الناس في كثير من الدول النامية يستخدمون السفن الشراعية في الملاحة على الشواطئ وعبر ممرات المياه داخل بلدانهم، كما تستخدم لصيد الأسماك عند كثير من الصيادين البسطاء[١].

وتبقى هذه الظواهر البحرية آيات دالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى[٢]، والمعنى القرآني يتجدد مهما تقدمت الأزمان، وتأثير السياق يتعمق في النفوس مهما تطورت التقنيات في صناعة المراكب البحرية.

صور لغرق السفينة السياحية كروز أمام إحدى السواحل الإيطالية، وكانت تحمل أكثر من أربعة آلاف راكب، مات منهم العشرات، وقد غرقت غيرها العديد من السفن السياحية العملاقة ومات الآلاف من ركابها، بالرغم من التصميم الهندسي المتقن في بنائها. قال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾، وقال: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ* إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾

١- وما زال الصينيون يستخدمون سفن اليَنْك لحمل البضائع والركاب على طول السواحل في الأنهار، كما أن مختلف النسخ الهندية من الدهو العربية يمكن رؤيتها حتى الآن في موانئ بومباي وكلكتا، وفي ثغور أخرى من المدن الهندية استخدم شعب غينيا الجديدة منذ عهد بعيد نوعاً بدائياً من السفن الشراعية تسمى لاكاتوي تتكون من عدة زوارق شجرية تم ربطها ببعضها كما أبحرت السكونة (مركب شراعي ذو صاريين أو أكثر) والسلوب (مركب شراعي وحيد الصاري) بين دولتي بنما والإكوادور وعلى طول الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية، انظر: تأريخ صناعة السفن على الرابط: https://eznaser.files.wordpress.com/2014/01/d8aad8a7d8b1d98-

٢- من الردود التي ذكرها بعض الباحثين في ردهم على هذه الشبهة: أن المقصود بالريح القوة المطلقة لأن الريح تأتي بمعنى القوة ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال:٤٦]، أي: قوتكم، فالمقصود توقف قوة الريح سواء كانت هواء أو ماء أو بخار أو غير ذلك، ومن الردود: أن العلوم المكتسبة تؤكد على حاجة كل مصادر الطاقة المستخدمة في دفع السفن إلى أوكسجين الهواء؛ فإذا سكنت الريح انعدم الأوكسجين فركدت السفن، ومنها: أنَّ هناك تصورات حالية لسفن البضائع في المستقبل بحيث تعتمد على مصادر طاقة أخرى بدلاً من البترول؛ تجنبا للتلوث البيئي؛ ونظراً لأن البترول في طريقه إلى لفناء، وعلى هذا ستعتمد السفينة على الطاقة الشمسية وطاقة الريح والماء، أو بالتحديد حركة الأمواج الناتجة عن الريح. وهذه الردود في نظري فيها نوع من التكلف الذي لا حاجة له والله أعلم [الباحث].

الحالة الثانية: حالة الفرح والسرور:

وفي هذه الحالة تأتي الرياح النافعة لتحريك السفن، وإزجائها في البحر، بعد أن كانت راكدة في مكانها، فيفرح راكبو السفينة بعد أن كانوا محبطين، وذلك لتحقق المراد من ركوبها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا...﴾[1].

فهذه الريح النافعة دفعت السفينة وحركتها من مكانها، ونقلتها من الركود إلى الحركة، وأصبحت تجري فوق الأمواج كما وصفها القرآن: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، ووصف نوع الريح: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ووصف ركاب السفينة بأنهم في حالة فرح: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا...﴾.

قال الإمام النسفي رحمه الله: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: السفن ﴿وَجَرَيْنَ﴾ أي: السفن ﴿بِهِم﴾ بمن فيها رجوع من الخطاب إلى الغيبة للمبالغة ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة الهبوب لا عاصفة ولا ضعيفة ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ بتلك الريح للينها واستقامتها[2].

التعبير بلفظ المفرد: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾:

غالباً ما يأتي التعبير في القرآن الكريم عن (الريح) بلفظ المفرد عندما تكون دالة على ريح العذاب خلافاً لِلَفظة (الرياح) بالجمع، والتي تدل على رياح الرحمة، ولقد قيدت هذه اللفظة في هذه الآية بأنها ﴿طَيِّبَةٍ﴾ حتى تدل على النفع والفائدة لراكب البحر.

وتعليل ذلك أنَّ ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد، كما دلت على ذلك الكثير من الآيات[3]، وريح الرحمة لينة متقطعة يعبر عنها بالجمع (رياح) لتقطعها أو لتعدد مهابِّها، ومع أنَّ الريح هنا يراد منها الرحمة إلا أنه لم يعبر عنها بالجمع بل جاء التعبير

١- [يونس:٢٢].

٢- تفسير النسفي، ١٢٣/٢.

٣- كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأحقاف:٢٤]، وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[الحاقة:٦]، وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[الذاريات:٤١]، وقوله: ﴿إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾[الأحزاب:٩]، وقوله: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[إبراهيم: ١٨]، وقوله: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على هذا المعنى.

هنا بالمفرد ﴿بِرِيحٍ﴾ وذلك لأنها جاءت لإجراء السفن[1] فلا بد أن تكون متصلة وملتحمة كجسم واحد وباتجاه واحد؛ لتدفع السفينة في مسار واحد، ثم قيدت بأنها ﴿طَيِّبَةٍ﴾ فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب حتى لا يفهم من ذلك إحداث الضرر بالسفينة، فدلت بهذا القيد على النفع والفائدة لراكب البحر[2].

قال الإمام ابن القيم عليه رحمة الله: «فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها؛ فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها؛ فإذا اختلفت عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك، فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعاً لتوهم أن تكون ريحاً عاصفة بل هي مما يُفرح بها لطيبها، فلينزه الفطن بصيرته في هذه الرياض المونقة المعجبة التي ترقص القلوبُ لها فرحاً، ويتغذى بها عن الطعام والشراب، والحمد لله الفتاح العليم فمثل هذا الفصل يعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله، والله الموفق للصواب»[3].

وقد بين لنا القرآن الكريم نعمة هذه الرياح البحرية وسوقها للسفن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وإنما زاد ﴿بأمره﴾ لأن الرياح قد تهب ولا تكون مواتية فلا بد من إرساء السفن والاحتيال بحبسها وربما عصفت فأغرقتها بأمره»[5].

فهذه هي الحالة الثانية التي يواجهها راكب البحر، بل لأجلها كان ركوبه حيث تتحرك السفينة بهذا النوع من الريح التي لا ضرر فيها ولا خوف، بل تبعث في نفسه الفرح والسرور

١- انظر: تفسير اللباب لابن عادل، ٢/٢٤٥.

٢- انظر: المحرر الوجيز، ١/٢١٩، تفسير القرطبي، ٢/١٩٩، تفسير البحر المحيط، ١/٤٠٧، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل، ٣/١٣٠.

٣- بدائع الفوائد- ابن قيم الجوزية، ١/١١٩.

٤- [الروم: ٤٦].

٥- تفسير القرطبي، ١٤/٤٠.

﴿وَفَرِحُواْ بِهَا...﴾، فيستمتع بالحركة الدائمة، والتنقل فوق قمم الأمواج الصغيرة، واستنشاق الهواء العليل، المحمل بالأوكسجين المتجدد بحركة التيارات الهوائية الانسيابية، فإذا كان البحر يُلَطِّف أجواءَ اليابسة بهوائه البارد المزود بكميات الأوكسجين؛ فكيف بمن يركب على ظهره مباشرة، فيداعب وجهه ذلك النسيم اللطيف الذي يشرح الصدور ويبهج الأفئدة.

إلّا أن الركاب قد يواجهون خطراً قادماً؛ وذلك باشتداد الريح وتحولها إلى النوع الخطر الذي يهدد السفينة وركابها، وهذا ما سنعرفه في الحالة الثالثة.

الحالة الثالثة: حالة الخوف واللجوء إلى الله:

وهذه الحالة وصفها القرآن الكريم في نفس الآية التي وصفت الحالة السابقة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

ففي هذه الحالة إذاً يواجه الركاب الريح العاصفة، حيث انتقلت حالة راكب السفينة فجأة من الفرح والسرور إلى حالة الخوف والهلع، والسبب في ذلك هو مجيء نوع آخر من الريح وصفها الله تعالى بقوله: ﴿جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وهذه الريح تحدث أمواجاً شديدة الارتفاع تحيط بالسفينة من كل الاتجاهات ﴿وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ لأن قوة الريح تضغط على سطح البحر فتحدث شكلاً مقعراً يجعل الموج يرتفع من كل مكان ويحيط بالسفينة من كل الجهات، ويكون ارتفاع موج البحر عالياً جداً قد يصل إلى (١٤ متراً) وربما أكثر كما بين ذلك الجدول الدولي للرياح الذي اعتمدته المنظمة العالمية للأرصاد الجوية (World Meteorological Organization)[2]، حيث قُسِّمت الرياح في الجدول الدولي بالتفصيل إلى ثلاثة عشر قسماً.. ومنها الرياح العاصفة المنضوية تحتها أربعة أقسام من العواصف هي: (العاصفة المعتدلة– العاصفة الناهضة– العاصفة الشديدة– العاصفة الهوجاء)[3].

١- [يونس:٢٢].

٢- المنظمة العالمية للأرصاد الجوية هي منظمة دولية متخصصة تابعة للأمم المتحدة، تتكون عضوية المنظمة من ١٨٨ دولة، وقد انبثقت من المنظمة الدولية للأرصاد الجوية والمنظمة البحرية الدولية، والتي أسست في ١٨٧٣م، أسست المنظمة العالمية للأرصاد الجوية في عام ١٩٥٠م، وفي ١٩٥١م أصبحت هيئة متخصصة للأمم المتحدة في علم الطقس (أي الطقس والمناخ)، وعلم المياه العملية وعلوم الجيوفيزياء التي لها صلة، ومقر هذه المنظمة في مدينة جنيف بسويسرا. الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

٣- انظر: الإعجاز العلمي في البحار والأرصاد الجوية- عبد المجيد بن عزيز الزنداني، جمع وإعداد: رياض عيدروس، ضمن مقررات الإعجاز العلمي بجامعة الإيمان، ط٣: ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م، ص٣١.

Force 9 Wind Speed 41 to 47 knots, (strong gale)
Sea Criterion: High waves; dense streaks of foam along the direction of the wind; crests of waves begin to topple, tumble and roll over; spray may affect visibility.
Probable Wave Height: 7 to 10 m (23 to 32 ft)

Force 9 : Vent de 41 à 47 noeuds (fort coup de vent).
Aspect de la mer : Grosses lames, épaisses traînées d'écume dans le lit du vent; la crête des lames commence à vaciller, s'écrouler et déferler en rouleaux; les embruns peuvent réduire la visibilité.
Hauteur probable des vagues : 7 à 10 m (23 à 32 pi).

وقد أحسن المفسرون وصف مجيء الموج من كل مكان وإحاطته بالسفينة من جميع الاتجاهات فقال الإمام السمرقندي رحمه الله: «الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ يعني: من كل ناحية»[1]، وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «﴿مِن كُلِّ مَكانٍ﴾ أيْ: مِن كُلِّ أمْكِنَةِ المَوْجِ»[2]، وقال الإمام أبو السعود رحمه الله: «﴿وَجاءَهُمُ المَوْجُ﴾ في الفُلْكِ ﴿مِن كُلِّ مَكانٍ﴾ أيْ: مِن أمْكِنَةِ مَجِيءِ المَوْجِ عادَةً، ولا بُعْدَ في مَجِيئِهِ مِن جَمِيعِ الجَوانِبِ أيْضاً، إذْ لا

١- بحر العلوم للسمرقندي، ٢/١١٠.
٢- زاد المسير- ابن الجوزي، ٢/٣٢٤.

يَجِبُ أنْ يَكُونَ مَجِيئُهُ مِن جِهَةِ هُبُوبِ الرِّيحِ فَقَطْ، بَلْ قَدْ يَكُونُ مِن غَيْرِها بِحَسَبِ أسْبابٍ تَتَّفِقُ لَهُ»[١]، وقال الإيجي: «من جميع الأطراف»[٢].

ولا شك أن ركاب السفينة في خوف شديد عند مواجهة هذه الريح، فربما أيقنوا بالهلاك[٣]، أو غلب على ظنهم ذلك[٤]: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ فقد أوشكت السفينة على الغرق في هذه الحالة، ولا يملكون عند ذلك إلّا اللجوء إلى الله عز وجلّ..

وعندما نتدبر هذه الآية الكريمة، ونتخيل المشهد أمام أعيننا فإذا بأمواج البحر تتلاطم مع بعضها، واضطراب البحر يزداد وهو ما يؤدي بدوره إلى اضطراب السفينة بمن فيها، ونرى الأمواج العاتية تتلاعب بجسم السفينة كالريشة في مهب الريح، ويتضح لنا من السياق مشهد ركاب السفينة وهم في

١- تفسير أبي السعود، ١٣٤/٤.

٢- جامع البيان في تفسير القرآن- محمد بن عبد الرحمن الإيجي، ١٢٧/٢.

٣- انظر: بحر العلوم للسمرقندي، ١١٠/٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣٢٥/٨.

٤- انظر: فتح القدير للشوكاني، ٤٩٤/٢، فتح البيان في مقاصد القرآن، صدِّيق حسن خان القنوجي، ٣٩/٦.

لحظات الخوف والهلع، وقد انقطعت بهم سبل النجاة، وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلّا إليه، وقلوبهم يملؤها الإخلاص لله وحده لا شريك له، فعندها ﴿دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ متبرئين من عبادة الأصنام والأوثان، فأخذوا يقطعون الوعود، ويكررون العهود: ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «﴿جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ الضمير في جاءتها للسفينة وقيل للريح الطيبة[1]، والعاصف الشديدة... ﴿وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ والموج ما ارتفع من الماء ﴿وَظَنُّواْ﴾ أي: أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم البلاء، يقال لمن وقع في بلية: قد أحيط به كأن البلاء قد أحاط به، وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله ﴿دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون، وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب»[2].

حالهم عند الإنجاء:

ولكن يا ترى ماذا كان حالهم عندما أنجاهم الله من الغرق ومن الموت المحقق، هل أنجزوا ما وعدوا به من ترك الكفر والعناد؟!، هل عادوا إلى طاعة الله كما عاهدوه سبحانه وهو الغني عن طاعتهم؟!، هل سيفردونه بالعبادة في البر كما أفردوه بالدعاء في البحر؟!، لقد حصل عكس ذلك تماماً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

١- وكلا المعنيين صحيح فالضمير هنا إما أن يعود على الريح الطيبة وهو آخر مذكور، وإما على الفلك وهو المحدث عنه في أول السياق، وعند تنازع الضمير بين القاعدتين يقدم المحدث عنه وهو الفُلك، ولا تعارض بين المعنيين والله أعلم. [أنظر تقرير القاعدة وتنازع الضمائر في: جامع البيان للطبري، ٢٥٠/١٧، الكشاف، ٦٣١/١، البحر المحيط، ٤٢١/٣، روح المعاني، ١١١/١٧، وانظر: قواعد الترجيح عند المفسرين، ٦٠٣/٢، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، ٢٦٣/١، مجموع الفتاوى، ١١٢/١٥، قواعد الترجيح عند المفسرين، ٦٢١/٢، النحو الوافي- عباس حسن، دار المعارف، القاهرة، ط: ١٥، ٢٥٦/١، الأشباه والنظائر- تاج الدين عبد الوهاب بن علي ابن عبد الكافي السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١: ١٤١١هـ- ١٩٩١م، ٢٣٥/٢، البحر المحيط في أصول الفقه- بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت: ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، ٤٦٥/٢].

٢- تفسير القرطبي، ٢٩٣/٨.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير: «قال الله تعالى: ﴿فلما أنجاهم﴾ أي: من تلك الورطة ﴿إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي: كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿كأن لم يدعنا إلى ضرٍ مسَّه﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم كما جاء في الحديث "ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم"[2]، وقوله: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ أي: مصيركم ومآلكم ﴿فننبئكم﴾ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[3].

١- [يونس: ٢٣].

٢- سنن أبي داود، ٢/٦٩٣، قال الألباني: (صحيح)، السلسلة الصحيحة، ٢/ ٥٨٨، برقم:٩١٨.

٣- تفسير ابن كثير، ٢/٥٤٢.

جحود الإنسان:

ما أشدَّ جحود هذا الإنسان، وما أشدَّ غروره، ألم يقطع الوعود وهو في البحر ألّا يعود إلى كفره وعناده؟!، فما إن وصل إلى شاطئ البحر حتى تنكر لكل ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾[1]، وكما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[2]، وقوله أيضاً: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[3].

وهذا هو حال الإنسان عند مواجهة الشدائد عموماً، لا يجد إلّا اللجوء إلى الله، كما أخبرنا سبحانه في الآية التي قبل هاتين الآيتين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[4].

قال سيد قطب رحمه الله: «عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا في ساعة الكربة، فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان.. ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل آن، مجلوة دائماً بجلاء الإيمان»[5].

ونجد هذا المعنى أيضاً في نفس السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[6].

١- [الإسراء : ٦٧].

٢- [العنكبوت:٦٥].

٣- [لقمان:٣٢].

٤- [يونس:٢١].

٥- في ظلال القرآن، ١٧٧٣/٣.

٦- [يونس: ١٢].

قال سيد قطب رحمه الله: «إنها صورة مبدعة لنموذج بشري مكرور.. وإن الإنسان ليظل مدفوعاً مع تيار الحياة، يخطئ ويذنب ويطغى ويسرف، والصحة موفورة، والظروف مواتية، وليس -إلا من عصم الله ورحم- من يتذكر في إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفاً وأن هناك عجزاً، وساعات الرخاء تُنسي، والإحساس بالغنى يُطغي.. ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع، وإذا هو كثير الدعاء، عريض الرجاء، ضيق بالشدة مستعجل للرخاء، فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر، انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار»[1].

والآيات في هذا المعنى كثيرة في كتاب الله تعالى ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[3].

وما أجمل قول الشاعر:

يـا رب عفوك لا تـأخذ بزلتنـا ... واغفر أيا رب ذنباً قد جـنينـاه
كم نطلب الله في ضر يحل بنـا ... فإن تولت بلايـانـا نسينـاه
ندعوه في البحر أن ينجي سفينتنا ... فإن وصلنا إلى الشاطي عصينـاه
ونركب الجو في أمن وفي دعـة ... فما سقطنا لأن الحـافظ اللهُ
فلا تغـرنك الدنيـا وزينتهـا ... فإنها طـلل قـد هَـدَّ أعـلاه

لفتة بلاغية:

في قوله تعالى: ﴿حَتّى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة حيث قال (وجرين بهم) ولم يقل وجرين بكم؟!

قيل: الِالتِفاتُ إلى الغَيْبَةِ لِلْإيذانِ بِما لَهم مِن سُوءِ الحالِ المُوجِبِ لِلْإعْراضِ عَنْهُمْ، كَأنَّهُ يَذْكُرُ لِغَيْرِهِمْ مَساوِئَ أحْوالِهِمْ لِيُعَجِّبَهم مِنها ويَسْتَدْعِيَ مِنهُ الإنْكارَ والتَّقْبِيحَ[1].

١- في ظلال القرآن، ١٧٦٩/٣.

٢- [النحل:٥٣].

٣- [النحل:٥٤].

وقيل: «خِطابٌ فِيهِ امْتِنانٌ وإظْهارُ نِعْمَةٍ لِلْمُخاطَبِينَ، والمسَيَّرُونَ في البَرِّ والبَحْرِ مُؤْمِنُونَ وكُفّارٌ، والخِطابُ شامِلٌ، فَحَسُنَ خِطابُهم بِذَلِكَ لِيَسْتَدِيمَ الصّالِحُ عَلى الشُّكْرِ، ولَعَلَّ الطّالِحَ يَتَذَكَّرُ هَذِهِ النِّعْمَةَ فَيَرْجِعُ، فَلَمّا ذُكِرَتْ حالَةٌ آلَ الأمْرُ في آخِرِها إلى أنَّ الملْتَبِسَ بِها هو باغٍ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ؛ عَدَلَ عَنِ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ حَتّى لا يَكُونَ المؤْمِنُونَ يُخاطَبُونَ بِصُدُورِ مِثْلِ هَذِهِ الحالَةِ الَّتِي آخِرُها البَغْيُ»[٢].

فهذه هي الحالة الثالثة التي قد يواجهها راكب البحر، وهي حالة اللجوء إلى الله تعالى وحده خوفاً من الغرق، وأملاً منهم بالنجاة، إلّا أن الركاب قد يواجهون نهاية حتمية، يحصل فيها ما يخشى حدوثه، وذلك بمجيء نوع آخر من الريح وهو النوع الذي لا أمل معه للنجاة، وهذا ما سنعرفه في الحالة الرابعة.

١- انظر: الكشاف للزمخشري، ٣٣٨/٢، تفسير أبي السعود، ١٣٤/٤.

٢- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ٣٣/٦.

الحالة الرابعة: حالة إغراق السفن بركابها:

عرفنا كيف كان التهديد بإسكان الريح فلا ينتفع راكبوها عند ذلك-وهذا ما عرفناه في الحالة الأولى- وجاء التهديد أيضاً في نفس الآية أنه سبحانه القادر على إغراقها بسبب ذنوبهم، قال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾[1]، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ* إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾[2]. فإغراق السفن لا يكون إلّا بأمره سبحانه، -وهذا ما نحن بصدده في هذه الحالة- فكل هذه الحالات تحت مشيئته، فهي تجري بأمره، أو تسكن بمشيئته، أو تغرق بقدرته.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: أو يوبق هذه الجواري في البحر بما كسبت ركبانها من الذنوب، واجترموا من الآثام، وجزم ﴿يوبقهنّ﴾ عطفاً على ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ ومعنى الكلام إن يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره، ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ ويعني بقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أو يهلكهنّ بالغرق»[3].

وهذه الحالة تشتد فيها الريح جاعلة سطح البحر كالوديان العميقة والموج كالجبال الشاهقة، ويصاحب ذلك ظواهر غير عادية، وتسمى هذه الريح بـ(الزوبعة أو الإعصار) وهذا النوع من الرياح تدمر السفن وتغرقها، وخاصة ريح الإعصار المسماة (هاريكن) Hurricane " إذ إنها ريح شديدة تقضي على السفينة مباشرة؛ لأنها تسير بسرعة هائلة جداً تؤدي إلى تكسير صواري السفينة وأعمدتها وقد يصل ارتفاع الموج فيها من (١٨— ٢٠ متراً) فيرتفع هذا الموج الهائل رافعاً معه مقدمة السفينة إلى أعلى ثم ترتطم بشدة على سطح البحر، وتتكرر هذه الارتطامات في مقدمة السفينة ومؤخرتها، بل إن الريح تحدث فجوات عميقة تحت جسم السفينة تزيد من قوة الارتطامات فتتخلخل أجزاؤها، بالإضافة إلى تحطيم الأعمدة والصواري، ومهما كانت ضخامة السفينة ومتانتها فإنها لا تصمد أمام هذا النوع من الريح[4]، والتي جاءت تسميتها في القرآن الكريم بـ(القاصف) التي تقصف السفينة

١- [الشورى:٣٤].

٢- [يس:٤١-٤٤].

٣- تفسير الطبري، ٥٤٢/٢١.

٤- انظر: الإعجاز العلمي في البحار والأرصاد الجوية، ص٣٦.

وتدمرها ولا أمل معها للنجاة، وهي التي وصفها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً* أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾[1].

ففي هذه الآيات يخاطبهم الله عز وجل فيقول لهم: تذكروا الحالة التي كنتم عليها عند مواجهتكم للريح العاصف-وهي الحالة الثالثة- عندما دب الرعب في قلوبكم، ولجأتم إلى الله وحده ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ولكنكم بمجرد وصولكم إلى البر نسيتم كل ما كان منكم ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ فأين الوعود التي قطعتموها، ها أنتم قد عدتم للإعراض مرة أخرى ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ ثم يقول لهم سبحانه: إن الذي خشيتم أن يغرقكم في البحر هو القادر على أن يغرقكم في البر فما الذي يؤَمِّنُكم من ذلك؟! ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ بالخسف أو بالزلازل كما أهلك من كانوا قبلكم ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ من السماء كالشهب والنيازك ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً﴾ فأنتم في كل الحالات تحت قبضته، ثم يقول لهم سبحانه: بل هو القادر على أن يعيدكم إلى البحر مرة أخرى، بأن يخلق فيكم الدواعي التي تجعلكم تحتاجون إلى الركوب فيه مرة أخرى ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ فعند ذلك سيرسل عليكم ريحا قاصفاً مدمرة أشد من الريح العاصف التي أنقذكم منها ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ﴾ تقصف السفينة فلا يكون معها أمل للنجاة ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾.

فوصف الريح هنا بأنها قاصفة أي: تقصف السفينة وتدمرها، ووصف حالة الركاب بأنهم قد أغرقوا بسبب كفرهم ولم يذكر معها أملاً للنجاة.

قال أبو السعود رحمه الله: «﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر ... ﴿تَارَةً أخرى﴾ إسنادُ الإعادة إليه تعالى مع أن العَوْدَ إليه باختيارهم باعتبار خلقِ الدواعي الملجئةِ لهم إلى

١- [الإسراء:٦٧-٦٩].

ذلك، وفيه إيماءٌ إلى كمال شدةِ هولِ ما لاقَوْه في التارة الأولى بحيث لولا الإعادةُ لما عادوا ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم في البحر وقرئ بالنون ﴿قَاصِفًا مّنَ الريح﴾ وهي التي لا تمر بشيء إلا كسرَتْه وجعلتْه كالرميم، أو التي لها قصيفٌ وهو الصوتُ الشديد كأنها تتقصّف أي: تتكسر ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ بعد كسر فُلْكِكم كما ينبيء عنه عنوانُ القصفِ، وقرئ بالنون وبالتاء على الإسناد إلى ضمير الريح ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراكِكم أو كفرانِكم لنعمة الإنجاء ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ أي: ثائراً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا ودَرْكاً للثأر من جهتنا كقوله سبحانه: ﴿وَلاَ يَخَافُ عقباها﴾»[1].

جزاء الإعراض:

وهكذا يكون جزاء من أعرض عن منهج الله تعالى فتكبر على خالقه، ونقض العهد مع ربه، فقد أغرق الله عز وجل هؤلاء بسبب كفرهم وعنادهم، كما أغرق آل فرعون وقوم نوح من قبلهم، وليس معنى ذلك أنهم إذا خرجوا من البحر أنهم في مأمن من عقاب الله، فما يعلم جنود ربك إلا هو سبحانه، فأنواع العقوبة كثيرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ

١- تفسير أبي السعود، ٢١٣/٤

عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[1]، حتى لو كانوا في البر فهو سبحانه القادر على أن يخسف بهم كما خسف بقارون، أو يرسل عليهم حاصباً من السماء كما أرسلها على قوم لوط، أو يأخذهم بالصيحة كما فعل بثمود، وهذه سنة الله عز وجل في خلقه، كما قال سبحانه: ﴿فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].

١- [الأنعام:٦٥].

٢- [العنكبوت:٤٠].

ومن رحمته سبحانه ولطفه بعباده أنه لا يؤاخذ الناس بكل ما يصدر منهم من آثام، بل يعفو ويتجاوز عن كثير مما اقترفوه من الذنوب[١]، وينجيهم من الهلاك قال الله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾[٢].

وقد أدركوا أنه إذا شاء أن يذيقهم بأسه ويوبق سفائنهم، فلا يملكون منها نجاة[٣]، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[٤]، أي: مالهم من مهرب أو مفر أو ملجأ.

ثم يخطو بهم خطوة أخرى، محقراً عندهم أمر الدنيا وشأنها؛ وهو يلفتهم إلى أن كل ما أوتوه في هذه الأرض متاع موقوت فيها، ومرغباً لهم فيما عنده من الجزاء العظيم، والمنزلة الرفيعة لديه من النعيم المقيم، وأن القيمة الباقية هي التي يدخرها الله في الآخرة للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، ويصف هؤلاء المؤمنين بما يميزهم ويفردهم من خصائص وسمات[٥]، تمثلت في الإيمان والتوكل.. قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٦].

اللهم اجعلنا ممن يفرون إليك، ويحسنون التوكل عليك، فيتقربون إليك في الرخاء، ويلجأون إليك في البأساء والضراء.. إنك سميع قريب مجيب الدعاء.

١- انظر: زاد المسير في علم التفسير، ٦٧/٤، تفسير السمعاني، ٧٩/٥، في ظلال القرآن، ٣١٥٩/٥.

٢- [الشورى:٣٢- ٣٤].

٣- انظر: في ظلال القرآن، ٣١٦٠/٥.

٤- [الشورى: ٣٥].

٥- انظر: تفسير ابن عطية- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٣٩/٥، في ظلال القرآن، ٣١٦٠/٥.

٦- [الشورى: ٣٦].

خـاتمة:

هذا ما تيسر جمعه في هذا الموضوع وهو الجزء الأول منه ويتبعه بإذن الله تعالى الجزء الثاني بعنوان: (البحر مصدر من مصادر الغذاء والدواء) فما أصبت فيه فمن الله وحده، وما أخطأت فيه فمن نفسي والشيطان، وهو ما لا يسلم منه أحدٌ.. وأستغفر الله من ذلك..

وإن تجد عيباً فسد الخللا *** جلّ منَ لا عيب فيه وعلا

كيف لا وقد أعَدتُ كتابته ومراجعته والإضافة إليه وفي القلب ما يشغله من نار البِعاد، ومفارقة الأهل والأولاد، والتَغَرُّب عن أرض المنشئِ والأجداد، وما نسمعه ونراه من حروب ورزايا في البلاد، ومحنٍ وبلايا تُفتت القلوبَ الأكباد[1].

فنسألك ربَّنا أن تفرج عن بلدنا بلد الحكمة والفقه والإيمان، وعن إخواننا المسلمين في سائر الأوطان، وعن جميع المستضعفين في كل مكان، إنك أنت الحليم الودود المنَّان..

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

والحمد لله ربِّ العالمين.

وكتبه الفقير إلى عفو ربه/

أبو عزام رياض عيدروس

٢٧/رجب/ ١٤٣٨هـ

الموافق ٢٠١٧/٤/٢٤م.

١- مستفادة بتصرف وإضافة بما يتناسب مع المقام من خاتمة كتاب: [رد المحتار على الدر المختار المعروف بحاشية ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، ط٢: ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، ٨١٣/٦.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
البسملة والاستفتاح	١
الإهداء	٢
مقدمة.....	٣
خطة البحث.....	٤
المبحث الأول: نعمة تسخير البحر للركوب	**٥**
تاريخ ركوب البحر.....	٥
المعجزة النبوية وأول غزوة بحرية	٦
الدلالة على قدرة الله ورحمته.....	٩
اقتران ذكر النعمتين.....	١٠
وقفة تأمل	١١
خصائص النقل البحري	١٤
المبحث الثاني: وصف القرآن لحالات الإنسان عند ركوب البحر	**١٩**
الحالة الأولى: حالة الإحباط	١٩
شبهة والرد عليها	٢١
الحالة الثانية: حالة الفرح والسرور	٢٣
التعبير بلفظ المفرد: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾	٢٣
الحالة الثالثة: حالة الخوف واللجوء إلى الله	٢٦
حالهم عند الإنجاء	٢٩
جحود هذا الإنسان	٣١
أبيات من الشعر	٣٢
لفتة بلاغية	٣٢
الحالة الرابعة: حالة إغراق السفن بركابها	٣٤
جزاء الإعراض	٣٦
خاتمة	**٣٩**
فهرس المحتويات	٤٠